

مشروع «تحسين بيئة

التعليم في مخيم شعفاط»¹

تأملات في بدايات تجربة

مع معلمات وأمهات في «المركز النسوي»

أهمية الرؤيا في العمل التربوي

منير فاشه

كتب «فرانسيس بيكن» الملقب بـ «أبو العلم الحديث» قبل 400 سنة، في بداية عصر «النهضة» في أوروبا، أن العلم هو «وسيلة لقهر الطبيعة وإخضاعها»²، وأن «المعرفة قوة». ما نحاول أن نفعله في مخيم شعفاط، باختصار، هو التحرر من هذا المفهوم للعلم والمعرفة، والسير وفق مفاهيم تحترم الخليقة وتحمي قدرة الطبيعة على توليد ذاتها.³ يشكل هذا الاحترام وهذه الحماية جوهر الرؤيا التي نعمل وفقها في المشروع. يرتبط احترام الخليقة بقيمة العافية (عافية الإنسان جسماً ونفسياً، وعافية العلاقات في المجتمع، وعافية الطبيعة) كما ترتبط حماية قدرة الطبيعة على توليد ذاتها بقيمة المسؤولية (مسؤوليتنا في تأمين هذه الحماية). من هنا، يكمن التحدي الذي نواجهه في المشروع في كيفية تجسيد هذه القيم في التعليم، بحيث «نخضع» المنهج لعملية الاحترام والحماية، ولقيم العافية والمسؤولية.

«الأداة» الرئيسية للقيام بالعمل المذكور أعلاه هو المجموعة المكوّنة لمشروع «تحسين بيئة التعليم» في المخيم.⁴ ما نقوم به هو ليس ورشة عمل أو تدريباً، بل يمكن وصفه بأنه «معايشة» تجسّد إبداعاً جماعياً.⁵ جزء مما نطمح أن نسهم فيه هو الإشارة إلى دور أنماط سائدة في العيش والفكر والإدراك والتعامل في خلق الأخطار القائمة، وأن نسهم في تغيير هذه الأنماط، على الأقل في حياة وعمل المجموعة المكوّنة للمشروع. هذه الأنماط والأخطار مغيبة من التعليم من خلال إلهائنا بأحلام صغيرة ضحلة مثل تحسين التحصيل وجودة التعليم وطرق التقييم وتطوير المناهج وورش التدريب وتكنولوجيا المعلومات (والتي يتمحور معظمها حول تحسين «القفص»، وإهمال ما يجري «للطير»).

القفص باستمرار، وفق خطط وُضعت بعناية فائقة، وصُرفَت عليها أموال طائلة. تمّ كل ذلك دون أن يلتفت أحد إلى ما كان يحصل للطير.

كلما تفكّرتُ في هذه القصة أشعر أنها من أصدق ما قرأته في وصف المدينة الغربية: التركيز على تحسين المظهر وإهمال الروح والجوهر. عندما كتب طاغور قصته كان القفص المدرسي ما زال صغيراً؛ أصبح اليوم كبيراً بحيث يتلعّج كل الجهود والميزانيات. أصبح قفصاً بأسوار عالية وأطفال نحشروهم في غرف ونحشو أدمغتهم بمناهج مصممة



■ قصة «الببغاء» لـ «طاغور»

كتب طاغور، الشاعر والفيلسوف والحكيم الهندي، العام 1924، قصة قصيرة تحكي قصة التعليم الذي أدخله الإنكليز إلى الهند 90 عاماً قبل نشر القصة. تدور القصة، باختصار حول ملك رأى ببغاء يعيش في عش بناه من أغصان الشجر، ويغرّد طول الوقت. فقال: «ما أغباه من طير، إنه بحاجة إلى تعليم». أمر أهل العلم والسلطة في مملكته أن يتولوا الأمر. تمحور كل ما قاموا به على بناء قفص وتحسين

وفق نمط الاستهلاك،⁶ بطريقة لا تختلف كثيراً عما يحدث للدجاج الذي يُحشّر في مساحة ضيقة، يُحشى خلالها بطعام هدفه الرئيسي زيادة سعر الدجاج في السوق، كما لا تختلف كثيراً عما يحدث للخنازير والبقر، حيث يُحشرون في مساحة ضيقة لا يستطيعون عمل أي شيء سوى الأكل. جُنّ البقر وفلوزت الطيور والخنازير أما الإنسان فما زال يفتخر بالأقفاص التي يحشّر فيها الأطفال مدة 12 سنة، يحشّوهم خلالها بمناهج تخدم الاستهلاك.⁷ ربما كان خليل السكاكيني استثناءً في فلسطين، حيث مارس مبدأ «إعزاز الطالب لا إذلاله» في المدارس التي أنشأها،⁸ إلا أن الإنكليز بمناهجهم واعتبار متروك لندن المرجع لقيمة الطالب، قضاوا على هذا المبدأ وغرّزوا في المعلمين والطلبة قناعة بأنهم هم وحضارتهم ومجتمعاتهم متخلفون.⁹ إلى جانب ذلك، انتزع المنهاج الإنكليزي الطلبة والمعلمين من الحياة، بحيث أصبحت مجرد «تطبيقات» لأفكار ونظريات مفبركة، بدلاً من أن تكون المرجع والمعيار. كذلك، حوّل الإنكليز مصدر قيمة الشخص مما يحسنه (انظر الفقرة الثانية تحت عنوان توضيح معنى رؤيا) إلى رقم تقررته لجنة في لندن (متروك لندن). منذ قدوم الإنكليز، انصبّ اهتمامنا على بناء أقفاص وتحسينها باستمرار. ما زالت الأغلبية الساحقة من التربويين تضع كل جهدها في تحسين الأقفاص.¹⁰ الوضع القائم في العالم يضطرنا للتوقف عن السير وفق هذا المسار المكلف والمرهق والمهدر والمهلي عما هو جوهري. أن الأوان أن نسترد استقلاليتنا في تكوين إدراكنا وتحديد القيم التي نرغب العيش وفقها. هذا ما نحاول عمله في مخيم شعفاط: التركيز على الروح والجوهر بدلاً من الاستمرار في تحسين القفص. هناك آلاف يعملون على تحسين الأقفاص؛ التعليم بحاجة إلى التنبّه إلى ما يحصل للطلبة ولعلاقاتهم للطبيعة. بدأنا في المشروع بنواح حياتية مثل ما يأكله الأطفال وعلاقتهم بالحياة، وبأهمية تحمّلهم مسؤولية على أصعدة عدة. كذلك، تم تركيز منذ البداية على اعتبار القصص والحكايات عنصراً أساسياً في التعلم، وبالتالي في المشروع. من المهم جداً أن تشمل المعرفة في المدارس ما يدخل أجسام الأطفال وخيالهم ونفوسهم وعقولهم، وما يحدث للطبيعة والنسيج المجتمعي؛ تغييرها يهدد الحياة.

لذا، من بين أول ما فعلناه في مشروع «تحسين بيئة التعليم» في المخيم لانتزاع الأطفال من القفص والحشر والحشو، كان (عندما توفر بعض المال) شراء تراب قدر خمس حافلات، ونشره في ساحة مدرسة الذكور الابتدائية. توجد في المدرسة مساحة لا بأس بها، ويمكن أن تكون متنفساً للأطفال، ليس فقط للعب، بل أيضاً تحمّل مسؤولية زراعتها والعناية بها. رأينا أن ذلك يشكل جزءاً مهماً من تحسين بيئة التعليم. نأمل أن يصبح مثل هذه الفسح والمساحات جزءاً من «منهاج» كل مدرسة، ففي ذلك غذاء للجسم والروح للأطفال، وجدل للنسيج فيما بينهم، وأيضاً مع الطبيعة.

كان بالإمكان أن نتصرف وفق الأيديولوجيا السائدة التي ترفع شعارات التقدم، والتميز، وتطوير المناهج، وتعليم مساند، وثقافة علمية، وتفكير علمي، وتحسين جودة التعليم، واللحاق بالركب، وعصر العولمة وتكنولوجيا المعلومات، وتعلم نشط، وبحث إجرائي، وتمكين، وتدريب، وخدمة، وتنمية، وورش عمل

وإنتاج، وpower point، التي جميعاً في أغلبها تحسّن للقفص؛ كان بإمكاننا شراء كمبيوترين أو ثلاثة بثمن التراب. لكن رأينا أن تحسين البيئة التعليمية (عنوان المشروع) يتطلب قبل كل شيء إخراج الأطفال -قدر الإمكان- من الأقفاص (ذهنياً وجسدياً ونفسياً)، ففي خروجهم تكمن عافيتهم وسعادتهم وتحملهم المسؤولية والعيش بحكمة؛ في خروجهم يكمن اعتبار الطبيعة أساساً ومرجعاً ومعيّاراً.

لتوضيح الفرق بين الجوهر والقفص، يمكن النظر إليهما من خلال التمييز بين الصقل واللصق.¹¹ ما يُصقل (مثل الفهم والتعبير والحكمة والعافية والسعادة والتعامل والكرامة) لا يمكن إضافته إلى (CV)، بينما ما يُلصق (مثل شهادة وجائزة ووظيفة وتفوق وتميّز وحقوق) يمكن إضافته إلى (CV) (والتي هي جزء من القفص). أي شيء يمكن تخطيطه وقياسه من قبل مهنيين وخبراء يرتبط بالقفص. هذا لا يعني أن الاهتمام بهذه الأمور ليس ضرورياً، ولكن الخطر يكمن في إهمال أبعاد جوهرية في الحياة، لا يمكن قياسها، ولكنها مهمة جداً، إذ لا يمكن أن تستقيم الحياة دونها، والتي غالباً ما تخفى عن العقل، ويصعب على اللغة التعبير عنها كاملاً. لا يوجد عالمٌ قادر على خلق سعادة في المختبر أو من خلال العقل، ولا توجد مؤسسة تستطيع تدريس الحكمة أو الكرامة (بعكس الحقوق التي هي جزء من القفص).

■ العمل مع «المركز النسوي» في مخيم شعفاط

عندما اتصل معي مدير المشاريع في «المركز» (بناء على اقتراح «روان نتشة» من «مؤسسة التعاون») حول العمل مع معلمات الصفوف الأولى والثاني والثالث بهدف تحسين التحصيل المدرسي لدى الأطفال، ترددت كثيراً، إذ، بناء على خبرات سابقة، كنت شبه متيقن بأنهم لن يقبلوا بالمدخل الذي أجده متوافقاً مع قناعاتي ومناسباً للوضع محلياً وعالمياً، وأنا من جهتي لن أقبل أن أعمل أي شيء هدفه النظر إلى التعليم من منطلق أن فيه عطبا علينا إصلاحه، وأن المعلمين والمعلمات فيهم نقص علينا معالجته وملؤه. بعبارة أخرى، ليس لدي استعداد لصرف أي جهد لتحسين القفص.

تمّ اللقاء مع مسؤولين في المركز يوم 20/7/2009. قلت: أرفض أن أنضم إلى قافلة المستعبدين لتحسين مقياس فيه تحقير للإنسان ألا وهو العلامة، كما أرفض أن أتعامل مع أي موضوع بشكل منفصل عن السياق والحياة، وأن أبدأ بكلمات لا تستمد معانيها من الحياة. أرفض أن أتعامل مع المعلمات وكأنهن معاقات، وأن ما يحتجته هو مهارات وأساليب ووسائل حديثة تُعطى لهن عبر دورات تدريب وورش عمل؛ فهن أدرى مني بالمخيم وأطفاله؛ هنّ منجم هائل من الخبرات والقدرات والحكايات والمعاني. قلت: ليس لدي شيء جاهز أعطيه للمعلمات يطبقته بشكل آلي. أرى دوري، بشكل رئيسي، كمرآة يرين من خلالها أن جوهر ما يفتش عنه موجود لديهن وحوّلهن؛ يرين من خلالها الغنى الموجود في حياتهن (كأشخاص ومجتمع وحضارة). دوري أن أذكرهن بهذا الغنى وبأبعادٍ مُعَيَّنة من

التعليم، مثل العافية والكرامة والمسؤولية كقيم. لا تكمن المشكلة في المعلمات والأطفال، بل في الإدراك والقيم التي تحكم التعليم السائد، والتي يمكن تلخيصها بالمنافسة والفوز والسيطرة؛ أي، تكمن المشكلة في المنطق الذي يحكم سلوكنا. إحدى فرضيات هذا المنطق هو اعتبار التعلم ينتج عن تدريس، ونسيان حقيقة أن التعلم، مثله مثل التنفس، هو قدرة بيولوجية، وبالتالي كل ما يحتاجه الطفل هو بيئة حقيقية سليمة وحيوية ومعافاة. قلت: من هنا، سنركز -إذا اتفقنا- على ما يحدث للطفل والعلاقات والطبيعة، وبالتالي على أهمية الرؤية في العمل التربوي.¹²

كانت دهشتي وسعادتي كبيرتين عندما وافقوا وأبدوا استعداداً لتحويل الاهتمام من القفص إلى الروح والجوهر. ولكن ما لبثت دهشتي أن زالت عندما تذكرت أنني في مخيم شعفاط، في وسط الحياة، وليس في برج يعيش زيفاً وينظر إلى الحياة كـ«تطبيقات» لأفكار مُبرّكة. بدأنا العمل. كان أول لقاء مع الأمهات والمعلمات يوم 2009/8/10.

■ توضيح معنى رؤيا

استعمل كلمة «رؤيا» هنا بمعنى التعرف على الواقع والجذور التي كوّنته، وتوضيح موقعنا وعلاقتنا به، وتحديد القيم والمبادئ التي نتفق على العيش والتصرف وفقها؛ ولعل أهم عنصر هو القيم التي لا نخالفها في أفعالنا. قلت: سنركز على التعليم في لقاءاتنا ليس كإكتساب معلومات ومهارات والتعامل معها كإصقاقات على شخصياتنا، وإنما كصقل للذات وتغذية للجسم والنفس والروح والعلاقات. ركزت منذ البداية على تذكير المعلمات بأن كل طفل يتغذى من تربتين، الأرضية والثقافية. من هنا تنبع أهمية حماية التربتين حتى تستمر في توليد الذات وتوليد الحياة. العنصر الرئيسي في حماية التربة الأرضية هو الذبال (وأهم فاعل فيه دودة الأرض)،¹³ بينما العنصر الأساسي في حماية التربة الثقافية هو القصة (وأهم فاعل فيها هم الحكواتيون). من الضروري، إذن، أن تكون هذه الأمور جزءاً من فلسفة التعليم وممارسته. يتوافق الاهتمام بالتربتين مع القناعة بأن ما يحتاجه أي مجتمع من مقومات وقدرات -كأساس- متوفر فيه. ويحتّم هذا وضع جهد ليتوافق تعليم المواضيع المختلفة في المدارس مع هذه الأبعاد. هاتان التربتان مغيبتان من الأجهزة التعليمية حول العالم. فالصراع الحالي هو بين الانغماس في نمط الاستهلاك وبين العيش بحكمة.

من هنا برز موضوع كيفية التوليف بين التربة المحلية والثقافة المحلية والاقتصاد المحلي في العمل مع الأطفال،¹⁴ إذ يُكوّن هذا الثلاثي الحامي الرئيسي لقدرة الناس والمجتمعات والطبيعة على البقاء والاستمرار وتوليد الحياة. تكوّن هذه الحماية جزءاً من الحكمة وعنصراً أساسياً في الرؤيا. من الجميل والمدهش أن العرب القدماء رأوا العلاقة بين الحكايات والنباتات (أي ما يغذي الأطفال)، إذ استعملوا الكلمة نفسها فقالوا: نروي نباتات ونروي حكايات. ربّما من الأنسب -توافقاً مع هذه الروح- أن نقول «نروي/ نغذي أطفالاً»

بدلاً من «ندرس أطفالاً». من المدهش أيضاً أن العرب القدماء رأوا أن دور العقل يكمن في احترام الخليفة وحماية الطبيعة والمخلوقات من أي مكروه، إذ أن جذر كلمة عقل -عقل- يتوافق مع معنى لجم، أي أن دور العقل هو لجم صاحبه من القيام بأي عمل قبل التفكير في عواقبه، ويتوافق هذا مع الرؤيا أعلاه حول مسؤوليتنا في حماية الخليفة من أي تخريب. يختلف هذا الإدراك للعقل جذرياً عن إدراك الغرب كما صاغه بيكن من أن العلم إخضاع للطبيعة، وكما عبّر ديكارت من أن الفكر يسبق الوجود. إلى جانب ما ذكرته حول الحضارة العربية، هناك عبارة للإمام علي، أجدها أروع ما قيل في قيمة الإنسان: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» بمختلف معاني «يحسن» بالعربية (الإتقان، والعطاء، والجمال، والفائدة، والاحترام). تحررنا العبارة من المفهوم السائد للتقييم الذي يعتمد على مقياس رأسي ويخلق طبقة، لعلها الأسوأ: ناجحون وخاسرون! يتوافق مفهوم العرب للعقل وقيمة الإنسان مع القناعة بأن الخالق أعطى حرية ومسؤولية للبشر (عكس الغريزة لدى الحيوانات) في أن يختاروا بين ما يدمر الحياة، وبين العيش بحكمة، ما يتطلب تحولات جريئة في القيم التي تحكم سلوكنا.

■ تجسيد الرؤيا في العمل مع المعلمات والأمهات والأطفال في مخيم شعفاط

ذكرت للمعلمات أن الإبداع الذي مارسته منذ العام 1971 كان إبداعاً جماعياً وليس شخصياً. وهذا يعني عملياً أهمية إدراك كل معلمة لذاتها ليس كمستهلكة لمعارف وأساليب جاهزة، وإنما كشريكة في تكوين وممارسة رؤيا حول تحسين بيئة التعليم في المخيم. كان دائماً ضمن جماعة، عملنا معاً خلال فترة من الزمن. ذكرت أن هذا ما أطمح إليه في عملي معهن في المركز. اتفقنا أن تكون لقاءاتنا أيام الأربعاء حول قضايا ومواضيع تربوية، هدفها الرئيسي هو صقل كل معلمة لنواح عدة في شخصيتها، ليس وفق نموذج جاهز، بل وفق خبراتها وتأملاتها وقناعاتها، التي يمكن أن تتجسد في عملها مع الأطفال أيام السبت والأحد. لقاءات الأربعاء هي بمثابة توسيع للخيال، ولما يمكن عمله في الواقع وفق الرؤيا أعلاه. اتفقنا أن لكل معلمة أسلوبها وفهمها وتجاربها، ما يعني أن المسؤولية تقع عليها لصقل شخصيتها وعملها. لا يوجد نموذج على المعلمات أن يكنّ نسخاً عنه، ولا يوجد خبير يقول لهنّ هذا صواب وذاك خطأ. ففي ذلك احتقار للشخص وينطلق من فرضية أن الناس غير قادرين على تثقيف الذات. جذر «ثقافة» في اللغة العربية يرتبط بصقل المرص، ما يعني أن تثقيف الذات يعني صقل الذات. هذا لا يعني أن لا تستمع المعلمة لآراء وملاحظات الآخرين، وإنما يعني أن الحق لها وحدها، لأن تختار ما ترى له معنى في عملها.

توافقاً مع قيمتي العافية والمسؤولية وربطهما بنمط العيش وليس إبقاءهما شعارات وتجريدات لا جذور لها في حياتهم، كان التركيز على أن تكون الزراعة والذبال والطعام والحكاية والقصة مواد أساسية في العمل مع المعلمات والأطفال. إلى جانب شراء تراب ونشره



قوة بيانه وتبيين ما كان يدور بداخله. ذلك، كما يظهر، هو ما أثر على المدير وتعامل مع الطفل كندِّ وباحترام. من الجدير بالذكر هنا أن هذا الإدراك للغة والذي عبّر عنه الجاحظ يتناقض كلياً مع المهمة الرئيسية التي تُوظف لها اللغة في العصر الحديث، ألا وهي الخداع والتشويه والإيحاء والسيطرة والإلهاء. يتم هذا عبر ما يُغيّب وليس فقط ما يُقدّم.

قضية أُثيرت في أحد اللقاءات: ذكرت الأمهات والمعلمات مشكلة التسرب من المدارس كمشكلة كبرى في المخيم. قلت: مشكلتكم تهون أمام ما نواجهه في رام الله: التسرب من الحياة. عندما يهرب شخص من مدرسة يمكن رده إليها، أما عندما يهرب من الحياة مدة 12 سنة، يصبح شبه مستحيل رده إليها. من السهل في رام الله مثلاً أن يتخرج الطالب بعد 12 سنة ويكون من الأوائل دون أن يعرف من الحياة غير ما هو مرتبط بعالم الاستهلاك؛ يرى الحياة غالباً عبر نافذة السيارة، ويستمتع عادة إلى أصوات صادرة من أجهزة، ويتواصل عبر أجهزة؛ ولدى عودته إلى البيت يعيش مع الواجبات المدرسية. حتى ما يأكله يكون مُفبركاً. لا يلمس نبتة في حقل، ولا يسأل عن مصدر ما يأكله وما يدرسه في المنهج. يبرز هنا السؤال: كيف يبقى الطفل في المدرسة دون أن يتسرب من الحياة؟ يشكل هذا في رأيي تحدياً رئيسياً.

شعرت أن عملي مع أهالي المخيم سيبقى ناقصاً إذا لم أعمل في الوقت نفسه مع طلاب وطالبات في صفوف إعدادية. وحدث أن زارت مديرة مدرسة البنات إحدى جلساتنا واهتمت بالتعاون معنا. زرت المدرسة، واتفقنا أن ألتقي مع بعض الطالبات أيام السبت (والمخصص في مدارس الوكالة لما يسمى بالتعليم المساند). بدأت مع طالبات في الصف السابع حول أهمية الترتيب (الأرضية والثقافية) في تغذية الإنسان، التي تعني عملياً الاهتمام بالزراعة والحكايات. تحدثنا عن

في أرض المدرسة، كان هناك تركيز على قصص المعلمات المتعلقة بخبرتهن كأساس (وهذا منجم تربوي هائل). فالتفكر في الخبرة وتكوين معنى لها يؤلفان جوهر التعلم. التفكر بالحياة وتكوين معنى لها يتناقضان مع كلمة «تطبيق» الشائعة لربط المعرفة بالحياة، والتي تعني أن الحياة تابعة للفكر بدل العكس.

اعتمدنا مصادر عدة للقصص: قصص نبعت من خبرات المعلمات والأمهات؛ قصص أشخاص عاشوا واقع وتاريخ مخيمات وقرى فلسطينية؛ وقصص وحكايات شعبية وتراثية.

■ قصص/أحداث/مواضيع برزت مع المعلمات

قصة روتها إحدى المعلمات عن طالب في الصف الأول الابتدائي، بنى علاقة واضحة مع المدير عندما جاء يوماً وطلب منه أن يسمح له بترك المدرسة بعد الحصّة الرابعة. فسأله المدير عن السبب، قال الطفل دون تلثم: لا أتحمّل أكثر من 4 حصص. اقترح عليه المدير أن يطلب ذلك من المعلمة. ذكر الطفل أنه طلب ذلك منها في اليوم السابق ووافقت، ولكنها لم تف بوعدها، لذا جاء إلى المدير لأنه يشعر أنه كمدبر سيُفني بوعده. قال المدير: سأتي وأخرجك بعد الحصّة الرابعة، ولكن عدني أنك ستحضر جميع الحصص يوم غد. وعد الطفل المدير وصافحه وذهب إلى صفه. كانت تلك المحادثة بداية علاقة جميلة بين الاثنين، حيث كان الطفل يمر كل صباح بغرفة المدير ويصيح عليه. تكمن قوة الطفل في بيانه مما ذكرني بكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ. اخترت للقاء التالي 6 صفحات من كتاب الجاحظ ووزعته على المعلمات، وتناقشنا حول أهمية البيان والتبيين في تعليم اللغة العربية، اللذين تمثّلا في شخصية الطفل، وتجلياً في

في أحد اللقاءات سألت: ما هو أحد أهم الطرق لتعلم العلوم؟ بعد نقاش ذكرت إحدى المعلمات «المشاهدة والملاحظة». ذكرتُ لهن أن في زيارة لي لإحدى المدارس في رام الله قبل سنوات سألتني معلمة علوم: كيف يمكن أن نعلم العلوم دون مختبرات؟ سألتها: هل يوجد ذباب في بيوت الطلبة؟ قالت طبعاً. قلت: هل تدركين أن مشاهدة الذباب وملاحظة تصرفاته وتدوينها مدة شهر، ومن ثم توليف ما جمعه الطلبة، سيتعلمون عن العلوم، ربما ما لا يتعلموه خلال 12 سنة؟ كذلك الحال بالنسبة للقمر، الذي ألهم العرب وبنوا جزءاً كبيراً من حضارتهم وأدبهم حوله، يشكل هو بدوره أمراً يستحق المشاهدة والملاحظة، وبالتالي يكون ظاهرة لفهم معنى علم. ما يركز عليه في المناهج (بما في ذلك المختبرات) هو معلومات جاهزة ونتائج معروفة مسبقاً، إلى جانب إخفاء التنوع في الفهم، وإخفاء مسؤولية كل شخص في تكوينه.

■ إسهاب حول الإدراكين للتعليم

ذكرت سابقاً أن هناك إدراكين رئيسيين للتعليم: كاستساب معلومات ومهارات تلصق خارجنا، أو كصقل للذات وتغذية للجسم والنفس والروح والعلاقات؛ أي أن الصراع المتعلق بالتعليم يكمن بين من يدركونه ك«شيء» يعطيه شخص إلى آخر، وبين من يدركونه كشيء يقوم به الشخص لذاته. القيم في الإدراك الأول هي السيطرة والفوز، بينما في الثاني هي العافية والمسؤولية. الأداة الرئيسية في الأول هي التقييم على خط رأسي يدعي الموضوعية والحياد العالمية، بينما الطريق الرئيسي في الثاني هو التفكير الذي يكون احترام الخليقة، وحماية قدرة تربة الأرض وتربة الثقافة على توليد الحياة أهم عناصره. المنهاج هو المعيار في الأول؛ بينما الطبيعة هي المعيار في الثاني. الكلمة الجوهرية في الأول هي القياس، بينما في الثاني التغذية.

هذا الصراع بين الإدراكين موجود في تجربة مخيم شعفاط. فهناك ما يشدنا للتركيز على الإدراك الأول بسبب أننا نعيش في عالم تهيم عليه المؤسسات ويحكمه نمط الاستهلاك؛ ولكن هناك وضعاً في العالم (وبشكل خاص في فلسطين) يضطرنا إلى الاهتمام بالسير وفق الإدراك الثاني. تطويع المنهاج، بحيث يكون متوافقاً مع هذا الإدراك كان وما زال أحد تحديات التجربة.

إذا سمعت شخصاً يقول إنه يتقن استعمال الكمبيوتر، فأغلب الظن أنك لن تنفعل. في المقابل، إذا استمعت لشخص يضرب على طبله، فإنك على الأغلب ستشعر بانتعاش. كذلك، لا أظن أنك ستندش إذا سمعت شخصاً يقول إنه يعرف كيف يسوق سيارة، بينما سيثير انتباهك إذا قال بأنه يحسن ركوب الخيل. إذن، لماذا نعتبر الكمبيوتر والسيارة تقدماً بينما نهمل كلياً الطبل والفرس؟ عندما أزر مدرسة وأأخذونني إلى غرفة الكمبيوتر، أقول أريد أن أرى غرفة الطبلات. لم أجد بعد مدرسة تخصص مساحة لطلبات، بينما الكمبيوتر يُعامل كأمر! من الصعب أن يُتقن شخص الإيقاع أو ركوب فرس دون أن تكون روحه وقلبه وجسمه وفكره تعمل ضمن تناغم حيوي وجميل.

العافية والمسؤولية كقيمتين جوهريتين في العيش. بدأنا بزراعة نباتات في أرض المدرسة. في أحد اللقاءات، رأيت لدى دخولي الغرفة أن في أيديهن باكتيات بمبا وتشيس وكولا، وكل ما يحتوي على سموم بطيئة (مسموح للشركات حول العالم عدم الإفصاح عنها في قائمة المحتويات!). كان ذلك فرصة للتحدث عن المعارف والمعلومات المغيبة في التعليم وفي الإعلام. تحدثنا عن موضوع الزبالة في المخيم، الذي كن قد ذكرناه في اللقاء السابق. قلت: الإنسان المعاصر يرى علب الكولا التي ترمى في كل مكان، ولكنه لا يسأل عما حدث لمحتوياتها. ألم تلوث أمعدة الذين شربوها؟ نرى التلوث الذي يحدث خارجنا، ولا نرى التلوث الذي يحدث في معدائنا وأذهاننا ونفوسنا وعلاقتنا. من السهل تنظيف البيئة من العلب، بينما من الصعب جدا -إن لم يكن من المستحيل- تنظيف أجسام الأطفال من المأكولات والمشروبات المصنعة الضارة. تنظيف البيئة من العلب تدعّمه شركات الكولا، بينما تنظيف المعدة تُقيمه مغيباً! من هذا المطلق، الواجبات أهم من الحقوق. نعيش عصراً يتوجب معه أن نحمي أنفسنا ونكون مسؤولين عما يدخل أجسامنا وعقولنا ونفوسنا. لذا، من الصعب تبرير تغييب مصدر ما نأكله من المعارف المدرسية... موضوع الأطعمة كان فرصة لكي أطرح فكرة قيام كل طالبة بحفظ سجل لما تأكله مدة أسبوع (على الأقل)، على أن يصبح ذلك، مع ما يفعله لمواجهة المشكلة، موضوع عدد من مجلة «قلب الأمور» يعملن على إنتاجها حول علاقة هذه المأكولات بالاستهلاك والعافية والمسؤولية. من خلال إخراج مجلة كهذه، ستتعلم الطالبات الرياضيات للتعرف على نمط حياتهن اليومية، وبالتالي يمكن أن يعشن أكثر وفق العافية والمسؤولية كما يستطعن التحكم أكثر بحياتهن. إلى جانب هذا، فإن إنتاج مجلة مشتركة سيساعدهن في العمل ضمن مجموعة وفي صقل قدراتهن اللغوية وربطها بالحياة.

فيما يلي بعض القصص التي تكلمنا عنها في لقاءات الأربعاء مع المعلمات (أذكرها هنا لقيمتها التربوية دون تفصيل):

- قصة البيغاء لطاغور.
- قصة جحا والجار والحمار، التي تحكي بشكل مذهل ما يحدث في المؤسسات بوجه عام.
- قصة الولدين والصيد الذي يذبح عصفوراً، لخليل السكاكيني (وعلاقتها بخطاب أوباما في القاهرة).
- قصة السنابل ذات الرأس المحني والسنابل ذات الرأس المرفوع، لخليل السكاكيني... حول العنجهية.
- الغراب والحجلة (من كتاب «كليلة ودمنة»).
- عنوان كتاب السكاكيني المفقود: «الاحتذاء بحذاء الغير».
- قصة القانون الإنكليزي لدخول الأقصى (مذكرات واصف جوهرية) كيف حوّل الإنكليز التعددية إلى طائفية.

إلى جانب القصص النابعة من الخبرات، والقصص الشعبية والتراثية، جلبت بعض قصص جمعت من فلسطينيين في مواقع أخرى، مثل القصص الصوتية التي سُجلت في مركز تطوير الإعلام بجامعة بيرزيت، وقصص من فلسطيني الشتات التي جمعتها مؤسسة «الجنى» في لبنان، وقصص سُجلت كأفلام لأشخاص هُجروا من فلسطين العام 1948.

عودة إلى الأقفاس . إذا فكرت في الأماكن التي درّست أو درّست فيها أجد أن الأماكن التي كانت مغذية لي لم تكن حدود أقفاسها واضحة ، ولم تكن أقفاسها مبهره ، بل كانت روحها هي رصيدها ومصدر قوتها . درست من الرابع الابتدائي وحتى نهاية المرحلة الثانوية في «الكلية الوطنية» (المعروفة بـ«مدرسة أبو ريا») التي أسسها العام 1947 واضطر إلى إغلاقها العام 1968 بعد الاحتلال الإسرائيلي . كانت بناية المدرسة بيتاً قديماً . لم تكن المدرسة واسعة ، إذ أخذ الصفوف التي درست فيها كان في الممر ، وآخر كان في العلية . لكن ما ميز المدرسة كان روحها التي استلهمها خليل أبو ريا من أستاذه خليل السكاكيني . من بين ما أذكره أمران . الأول ، بناء على فلسفة السكاكيني بالتعرف على فلسطين مشياً على الأقدام ، كان أبو ريا يُعلق المدرسة أيام السبت الساعة التاسعة صباحاً ويأخذ جميع الطلبة والمعلمين والموظفين رحلة على الأقدام في الجبال والوديان حول رام الله ، لا نتعرف خلالها على الطبيعة ونستمتع بها فحسب ، بل أيضاً على بعضنا البعض ، صغاراً وكباراً ؛ كانت تجدل بيننا نسيجاً أسبوعياً . تلك المشاوير جزء من الروح وليس القفص . كان عمري 9 سنوات عندها . أما الأمر الثاني الذي أتذكره فهو تحويل الصفوف إلى مناقشات عندما يحدث حدث ضخم (مثلاً عندما أمم عبد الناصر قناة السويس) . من المعلمين الذين أذكرهم في هذا المضمار (إلى جانب أبو ريا) إبراهيم الخوري ويوسف الحسيني . تلك المناقشات كانت تربطنا مع الأحداث ليس عبر فضائيات ، وإنما من خلال أناس يقولون ما يعنونهم ويعنون ما يقولونه . لا توجد مدرسة حالياً في رام الله تحمل تلك الروح !

كذلك الحال بالنسبة لـ «جامعة بيرزيت» خلال عقد السبعينيات . كانت عندها مكونة من بنايات وبيوت موزعة في بلدة بيرزيت . لم يكن «القفص» محكماً ذا أسوار وحدود واضحة . لم تكن هناك بطاقات دخول . كان الجيران قرب مكتبي (عندما عملت عميداً لشؤون الطلبة) يربطون حمارهم بالشجرة التي يطل عليها شبك المكتب ، وإذا رغب الحمار في النهيق خلال اجتماع كان علينا أن نتنظر . كان من الصعب تحديد أي البيوت يمت إلى الجامعة ، وأيها يمت إلى أهل البلد . كان النسيج بين الجامعة والمجتمع قوياً ومتداخلاً . كانت المكتبة تفتح حتى الحادية عشرة مساءً وكنا نمشي -أساتذة وطلبة- كلما كان الطقس جميلاً على طريق جفنا أو عطارة أو برهام ، نتحدث ونلعب ونروي حكايات . كانت بيرزيت «المول» الوحيد للشباب ، ولكنه لم يكن «مولاً» استهلاكياً بل مغذ على أصعدة مختلفة . كان يؤم بيرزيت (تقريباً يومياً) طلبة من كل أنحاء فلسطين ، من الضفة وغزة والجليل . كانت الروح والحيوية عاليتين جداً ، والنسيج قوياً . عندما «تطورت» بيرزيت وأصبح القفص كبيراً ومبهرًا ، بدأت الروح بالتقلص . لم تتميز بيرزيت في السبعينيات على صعيد القفص ، بل الروح . لماذا نبيع الروح بهذه السهولة مقابل مكاسب قفصية . . أمرٌ سيبقى لغزاً كبيراً بالنسبة لي .

أخيراً ، أود أن أ طرح بعض القضايا للعمل أو التناقش :

- تحويل ما يمكن من أرض حول كل مدرسة (بما في ذلك السطح) إلى مكان جميل ومغذ ، يعمل فيه الأطفال .

- المشي في الطبيعة كجزء من المنهاج ، تحت عنوان «فلسطين جميلة» ، مرة في الشهر كبداية . فالمشي يبعد المعلمين والأطفال عن كثير من ملوثات المدينة الحديثة ، ويقربهم مما يغذي الجسم والذهن والروح والعلاقات .
- اختيار نصوص وأشعار تعكس جمال اللغة العربية (وهذا ما استعدت الأستاذة فاطمة حمد من كفر نعمة المساهمة فيه) ليكون جزءاً من «النشاطات» في المدارس . فاللغة العربية دون جمالها ومنطقها تصبح قبيحة .
- زيارات لحكواتيين ومزارعين ذوي خبرات غنية ، كما فعلنا في حزما ، ونيوي فعله في عين قينيا وأماكن أخرى .
- أسئلة تشكل جزءاً مستمراً في لقاءاتنا ، وأرى أهمية طرحها دوماً والبناء عليها : ما هي مصادر القوة في المجتمع؟ وماذا يحسنه كل شخص؟
- استعادة التفكير ، وعدم التركيز فقط على التفكير ، فالتفكير أكثر ارتباطاً بالروح والحكمة بينما التفكير يرتبط عادة بالأقفاس .
- العالم يحتاج إلى يقظة وصحوة وليس إلى تنمية ونهضة ، فقد نهض العالم عن طريق العلوم والتكنولوجيا (دون حكمة) إلى علو شاق ، ونجد أنفسنا حالياً مقبلين على سقوط لا شك في أنه سيكون مديواً .
- التقييم المتبع ، بجميع أشكاله ، ما هو إلا تحسين للأقفاس .
- روح الضيافة المتمثلة بالإصغاء لطفل دون مقاطعة ودون أحكام ، ستجدل نسيجاً جميلاً يساعد في نمو الطفل على أصعدة جوهرية ، وهي روح غائبة في مؤسسات تبحث عن نتائج شكلية (كما هو الحال في عالم اليوم) .

أعود مرة أخرى للحلم الكبير . أعتقد أن ما يمكن أن يجمع بين الدين والتربية والعلوم والسياسة والاقتصاد والثقافة -وهو أمر يجسد الحكمة وملحّ جداً ، إذ يعتمد عليه استمرار الحياة على الأرض- هو احترام الخليقة وحماية قدرة الطبيعة على توليد ذاتها . يمكن أن يشكل هذا فرصة يمسك فيها التعليم زمام المبادرة ويقود العملية بدلاً من أن يكون تابعاً ، كعادته ، لمصالح سياسية أو جشع اقتصادي . نعم ، حلم كبير ولكن الوضع في العالم يتطلب مثل هذه الرؤيا . وفي رأيي ، الوضع في فلسطين ، وبوجه خاص مواقع مثل مخيم شعفاط ، على الرغم من الظروف الصعبة -بل ربما بسببها- مهبةٌ لمثل هذه القيادة . أستعمل كلمة قيادة بمعنى أنها تنتج عن رؤيا حيوية بلا سلطة .

ضمن هذا الحلم الواسع ، أمل أن يتسنى لي الوقت (قبل أن يتوفاني الله) ، مع مجموعة ممن يرغبون في ذلك ، أن نعمل على ربط تعلم وتعليم الرياضيات باللغة العربية والفنون العربية (مثل الخط العربي ، ومثل الإيقاع على الطبل) . فهذا يأخذ الرياضيات باتجاه «الشرق» (حيث يجمعهم جميعاً البعد الجمالي) ، بدلاً من التوجه نحو «الغرب» ، حيث ترتبط الرياضيات بالعلوم والتجارة (حيث تجمعهم قيم السيطرة والفوز) . هذا لا يعني إهمال التوجه الثاني ، بل استعادة الأول واعتباره الأساس .

منير فاشه
الملتقى التربوي العربي

الهوامش

¹ بتنسيق مع المركز النسوي ومؤسسة التعاون .

² Bacon viewed science as the means to gain power over Nature, «to conquer and subdue her, to shake her to her foundations... to make her your slave...».

³ ربما يبدو هذا القول كبيراً، بل مستحيلاً، لكننا نحاول أن نفعل ما فعله العصفور في الحكاية الشعبية الفلسطينية حين هبّت النار في غابة فهربت الحيوانات وجلست فوق تلة تشاهد النار تلتهم الغابة، باستثناء عصفور كان يذهب إلى الجدول ويبلل ريشه، وثم يطير ويرش الماء فوق النار . ضحكت الحيوانات وقالت: «هل تعتقد أنك بهذا ستخمد النار؟» قال: «لا، ولكنني أفعل ما أقدر عليه». هذا بالضبط ما نفعله ضمن مشروع «تحسين بيئة التعليم» في «المركز النسوي» بمخيم شعفات: نفعل ما نقدر عليه في مواجهة مدنية غزتنا منذ مائة عام بناه تلتهم كل ما يمنحنا الحياة . لا نتوقع من مراكز العلم والبحوث التي أسهمت في خلق المخاطر (حول العالم) أن تقوم بهذه المهمة، بل من أماكن مثل مخيم شعفات الذي يدفع أهله ثمن الهمجية السائدة، التي يشكل العلم والمعرفة كما صاغهما «بيكن» أسلحة رئيسية ضمن هذه الهمجية .

⁴ والتي تتكون من: نورز السلامة، هنادي سموم، سهام شعبان، رولا محمد حسين شحادة، منار خربطلي، رضا الطويل، روزين السلامة، روزان تميمي، ليان اسحق طوطح، نوال محمد الطويل، مدير المشاريع في المركز، سوزان عوده منسقة المشاريع في المركز، ومنير فاشه .

⁵ في مجلة «من وإلى» حول مفهوم معاشية ص 28-35 <http://www.min-wa-ila.com/June%2010%20-%202009.pdf>

⁶ يتعامل هذا النمط مع الطالب والمعرفة كسلع، وبالتالي فإن الهدف من أي تحسين في التعليم هو رفع سعر الاثني . ف «البكالوريا الدولية» مثلاً، ما هي إلا المثال الأبرز لتحويل الطالب إلى سلعة غالية في سوق الاستهلاك العالمي . هذه الحقيقة مغيبة بوجه عام، ومعها أيضاً السؤال التالي مغيب: ما هو الثمن الذي ندفعه من جراء اعتبار المعرفة والطالب سلعة؟

⁷ رأى الفيلسوف الصوفي الحلاج قبل ألف سنة خطر مثل هذا الحشو وشبّهه بحشو ناي، ما يجعل من المستحيل إخراج أنغام متناسقة منها، وكأن الحلاج كان يتكلم عما سيحصل في القرن العشرين: حشو أدمغة الطلبة بمناهج بحيث يصبح من المستحيل استخراج أي شيء ذي معنى .

⁸ التي كان أحد مظاهرها رفضه تقييم الطفل من خلال رقم (علامة).

⁹ منذ 60 سنة، أُضيف إلى التعليم التنمية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان (واللذان أُعلننا في نفس السنة) فعمّقا هذا الشعور بالتخلف

¹⁰ أنظر كأمثلة برامج التطوير في الجامعات، وأيضاً المقالات حول التعليم الفلسطيني في العدد 142 من This Week in Palestine

¹¹ الانحدار الذي نشهده في المجتمعات البشرية بدأ، في رأيي، عندما انتقل التعلم والثقافة والمعرفة والعلم من صقل للذات (من أمر يفعله الشخص لنفسه) إلى اكتساب مهارات آلية تلصق خارجه (أمر يفعله شخص لشخص آخر).

¹² جدير بالذكر هنا أهمية عدم الخلط بين الرؤيا والأهداف، وهو خلط شائع في بيانات معظم المؤسسات .

¹³ لا شك في أن أسوأ الاختراعات على الإطلاق هو السيفون، فعن طريقه نخسر الماء والتربة والفضلات ونلوّث البحار والأنهار والوديان، ونستبدلها بكيماويات تقتل دودة الأرض وقدرتها على توليد ذاتها . كيف نصف منهاجاً بأنه فلسطيني بينما دودة الأرض ليست جزءاً مهماً منه؟ دودة الأرض التي تعمل ليل نهار لتوليد التربة وتغذيها، وتغذيها، والتي تعطي دون حساب أو تفاخر . في الكتب المقررة يتكلمون عن عجائب الدنيا السبع، ويهملون أعجوبة كبرى في الخليقة: دودة الأرض .

¹⁴ من بين ما فعلته إحدى المعلمات هو، بمشاركة الأطفال، عمل مخلل خيار ورص زيتون، وذلك للاستعمال كجزء من طعامهم خلال النهار، بدلاً من البمبا والكولا والتشيبس . . يجسد هذا «المحليات الثلاثة» كما يجسد معنى المشاركة والعافية والمسؤولية والمعرفة .

